التواصل العثماني الجزائري خلال الاحتلال الفرنسي

أ. شاطو محمد

قسم التاريخ المركز الجامعي

– معسكر-

رغم الظروف القاسية التي كان يمر بها الجزائريون خلال الفترة الإستعمارية ؛ والتي لم تكن سوى إفرازاً طبيعياً لما عُرفت به السّلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر في مرحلتها الأخيرة من ضعف مسّ جميع جوانب الحياة ، وما نجم عنه من غزو أجنبي أفقد الجزائر استقلالها وسيادتها ؛ فإنّ نظرة العلماء والمثقفين ونبغاء الجزائر وممثليهم ، تجاه الدولة العثمانية ؛ لم تتغير وبقيت ثابتة إلى حدٍ كبير.

يرون فيها دولة الخلافة الإسلامية التي يلوذ إليها و يحتمي بها كلّ مسلم ؛ يرجو رضاها و يطلب عونها ويقرّ بالتبعية لها ، ويرجو بقاءها واستمرارها .

تدلّ على ذلك المراسلات المتبادلة بين الطرفين ، والقصائد الشعرية التي نظمها الجزائريون أثناء الحقبة الإستعمارية في كثير من المناسبات ، متوجهين بها الى السلطنة العثمانية ، تعبيراً منهم بالوقوف الى جابنها ، وعدم التخلي عن مؤازرتها في محنها ، حتى وإن كانوا هم أحوج من غيرهم الى من يؤازرهم . ممّا يبرز صدق التواصل الجزائري العثماني بعد سقوط الجزائر تحت الإحتلال الفرنسي .

إنّ هذه المعطيات التاريخية لتملي علينا ضرورة تقديم بعض النمادج من تلك المراسلات والأشعار ، نبدؤها بما جاء في مذكرات **أحمد باي** ، والتي يذكر فيها تواصله بالدولة العثمانية

أثـاء العمليـات الأولى للإحـتلال الفرنسـي ، وعـدم انقطاعـه عـن استشارة حكامها ، وانتضار آرائهم بشغف ، وهو ما نستشفه من قوله : " وأخيراً أتاني جواب السلطان محمود بعد احتلال مدينة عنابة ، وكان كالآتي : " إن سلوككم إزاء الفرنسيين والإجابة التي تفضلتم بها على اقتراحاتهم ليتفقان في نظري كل الإتفاق مع العدالة فاثبتوا على هده السيرة ، إنها هي الوحيدة التي يمكن أن تساهم في خير الإسلام والمسلمين ..." [1] . و في ذلك ما يشير الى التواصل الذي بقي يربط الطرفين الى بعضهما بعد زوال الحكم العثماني من الجزائر مباشرة .

كما نجد في رسالة السّيد **حمدان خوجة إلى السّلطان العثماني محمود الثاني** ؛ ما يؤكد تلك الأواصر ، وقد جاء فيها : ... إلى صاحب الجلالة ، سلطان العالم الإسلامي ومؤيّد الشعوب سيد السّيف والحروب ، رمز العطف والنصر والسّياسة ، **الخليفة المنتصر الوحيد ، ظل الله على الأرض ، جلالته ملجأ المسلمين والضعفاء.** سيدنا السّلطان محمود...نعلمكم أنه إثر المصائب التي حلّت بالبلاد ، فإن النّاس قد تفرّقوا شذر مذر،وهجروا عائلاتهم وبيوتهم ، وانّ الكفّار قد ألحقوا بهم ضيقًا و جورًا ، **بحيث أن لا ملجأ للناس لطلب المساعدة ، غير سلطانهم ...إن ملجئنا الوحيد هو الله ثم شخصكم** ،اذ انتم وحدكم تستطيعون أن تقدموا المساعدة المرجوة ... إن سلطاننا يعلم

أنه المسؤول عن هاته البلاد ... ليأخذ السلطان بنظر الاعتبار ما حلّ بنا من مصائب..."

حمدان بن المرحوم دفتردار عثمان خوجة باسم الشعب الجزائر باريس في 29 ربيع الأول1249 هـ.[3]

وفي الظروف نفسها كاتب **الأمير عبد القادر**[4] **السلطان العثماني عبد المجيد** برسالة اقتطفنا منها مايلي :

بسم اللّه الرحمان الرحيم و صلى اللّه على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما من ... **المستضعف لرحماكم ، الراجي فضلكم وقضاكم ، خادم حضرتكم** ، و خادم المجاهدين ، عبد القادر بن محي الدين ، منحه اللّه رضاه ثم رضى رسوله ثم رضاكم في الدنيا و يوم الدين ، آمين .

الى **سلطان سلاطين الاسلام و حامي بيضة أمة محمد عليه الصلاة والسلام** طود الملوك الشامخ ... خير ملك قاد الجيوش ، ورتب العساكر ، و أحكم سلطان اعترف بفضله الحسود و الناكر ، **السلطان عبد المجيد خان** ، أعانك اللّه على ما أولاك ، وكان لك و تولاك و نصرك على مر الدهور و الأزمان ، و سلام **على سيدي**

و رحمة اللّه و بركاته وبعد : انا نخبر سيدنا و نقص عليه من أخبارنا ... فالعدو ملك القرى و المدن ، واستولى على الأموال و الذخائر والخزاين ، و سمت به همته ـ أخزاه اللّه ـ الى ملك جميع

الايالة ، واسترقاق المسلمين ... **وحال الكافر و البحر بين المسلمين و بين سلطانهم ... و المسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك افراج ولا لهم ملجأ يلجؤن اليه ، غير حصنك العالي الادراج ، فأبصارهم لاعانتك و امدادك طامعة ، وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة** ، فانهم قد غلقت عليهم الأبواب ، وتقطعت بهم الحبال و الأسباب ، لا بلاغ لهم الا بالله ثم بك ... و إنّا من عيالك و الله سايلك عنا فأزل ما أثقل الظهرمنا وعنا ... ومرادنا نبعث لحضرة سيدنا هدية مع من يقوم مقامنا في **تقبيل يديك الكريمة** ... ومن كثرة الحروب لم يتيسر لنا ذلك و الله المسؤول في تبليغ مرادنا فيما هناك . وصلى الله على سيدنا محمد و آله و سلم تسليما .[5]

في شوال من رباط مستغانم 1257هـ[6]

وهذه رسالة أخرى من **رؤساء الجمعية الخيرية الجزائرية إلى الصّدرالأعظم محمود نديم باشا** تضمنت مايلي: " ... حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة الله هي العليا ، **وأنعم على المسلمين بتولية الوزارة** ، لناصرالشريعة والدين ، وجرّد من الملّة الإسلامية سيفًا عثمانياً ، أذلّ به كل كافر في الدنيا ، و صلاةً وسلامًا على من جاهد في إعلاء كلمة الله ، حق جهاده ، و على آله وأصحابه . فان رؤساء الجمعية الخيرية بالجزائر المحميّة ... سيد الوزراء في العالمين ، مغيث الغزاة والمجاهدين ،

الواثق بربه الكريم حضرت سيدنا محمود نديم ، أدام الله أيامه الزاهرة ، وأفاض على القاصدين غيوث مكارمه الماطرة ... وغاية رجانا أن تنظروا لنا بعين الرّحمة و الشّفقة و الغيرة الإسلامية ، بعرض حالنا على حظرة مولانا السّلطان المعظم ... الذي يُسأل عنا وعن دمائنا وأنفسنا بين يدي الله ... لعل وعسى أن يرحمنا و يفك أسرنا و يمسح دموع صغارنا و كبارنا ، بانقاذنا من تحت يد ظلم أعدائنا الكافرين ، لأننا من ضمن رعاياه سابقاً و لاحقاً " .

رؤساء الجمعية الخيرية الجزائرية [7] في 10 رجب سنة 1288هـ[8]

هذه المراسلات التي توجّهت بها النخبة الجزائرية من مثقفين ومجاهدين وأعيان إلى السّلطنة العثمانية ، في وقت لم يكونوا خاضعين لها ؛ لتدلّ عباراتها على عمق التواصل الذي ظلّ يربط الجزائريين بالدولة العثمانية ، و نظرتهم إليها .

فحمدان خوجة استعمل عبارات : (الخليفة المنتصر الوحيد ـ ظل الله على الأرض ـ جلالته ملجأ المسلمين والضعفاء ـ أن ملجئنا الوحيد هو الله وشخصكم ... الخ) .

والأمير عبد القادر استعمل عبارات : (خادم حضرتكم ـ سلطان سلاطين الاسلام ، المسلمون بهذا القطر لا لهم ملجأ يلجؤون اليه غير حصنك العالي الأدراج ـ وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة ـ تقبيل يديك الكريمة .....الخ)

ورؤساء الجمعية الخيرية الجزائرية استعملوا عبارات : (ناصر الشريعة والدين ـ جرّد من الملّة الإسلامية سيفًا عثمانيًا أذلّ به كل كافر في الدنيا ـ مُغيث الغزاة المجاهدين ـ فغاية رجانا أن تنظروا إلينا بعين الرّحمة والشّفقة ـ السّلطان الذي يُسأل عنّا وعن دمائنا وعن أنفسنا بين يدي الله سبحانه وتعالى ... الخ)

وإذا ما أردنا التعمّق أكثر في تلك العبارات ، فإننا نستشف منها مكانة الدولة العثمانية ومكانة حكّامها في نفوس الجزائيين ، فهي بالنسبة لهم مسؤولة عنهم بين يدي الله يوم القيامة ، ومن حقّهم عليها أن تُدافع وتردّ عنهم المعتدين ، وكلّ شيء في سبيل ذلك يهون من جانبهم .

بل ويستمر هذا التواصل الذي يشدّ الجزائريين إلى الدّولة العثمانية (رمز الخلافة الإسلامية) لا تشوبه شائبة. يتفاعلون مع أحداثها ، ويتألّمون لآلامها .

فخلال حرب القرم [9] تعاطى الجزائريون الحدث بكل جوارحهم ووجدانهم ، وتفاعلوا معه ، سواء من كان منهم داخل الجزائر، أو كان في المنفى . ولعلنا نجد في النمادج الموالية من القصائد الشعرية ما يبرز بعض الملامح لهذا التواصل الذي استمر بين الطرفين رغم الظروف القاسية التي كانوا يمرون بها .

فهذا واحد من الشعراء الجزائريين [10] ، قد عايش هذا الحدث بمختلف جوانبه ومراحله ؛ بمشاعره وبكل جوارحه رغم

تباعد المسافات ، ونظّم قصيدة طويلة استعرض فيها هذه الحرب ، يدعو فيها بالغلبة للعثمانيين ويتفاءل بالنصر لهم . اخترنا منها هذه الأبيات :

يا رافع السّما بالقدرة المومنين ليك تقارع
انعم على الغزاة بنصرة الاسلام كلّها تضارع

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

يا كامل العطا فرّحنا ببشاير النّصر يا ربّي
تبرا تزول هذه المحنة على المومنين يامرغوبي

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

انصر جيوش الاسلام بالمصطفى حبيبك
أمة شفيع الأنام عزموا لنصر دينك

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

انصر علام عبدك أميرالمومنين
عبد المجيد ناصردين المختار
ملايين بالعساكر على الواد معومين
لقوهم بشعلة قوم الكفّار
الاسلام والنّصارى والحوت مخلطين
والواد ماه تخلّط بالدّم احمار
قالوا الجنوس للاسلام رجال مطاردين
يكفي من الفتن انقرضت الاعمار

رسلوا **للموسكو** بالهدنة متوافقين

تودّي بما رضى السّلطان بتقدار

حيى الديّن في السبعين طلع نجم زين

على المومنين بالفرحات والاسرار

ميتين والف بعد أن هجروا المهاجرين

الامور طايلة نقصّر لك الاخبار [11]

أمّا **الأمير عبد القادر** فإنّه تأثر كثيراً بهدا الحدث وتفاعل معه وهو في منفاه بسوريا ، فراح ينشد شعراً يدعو فيه بالنصر للعثمانيين ، ويبرز مآثرهم فيقول :

يا ربّ أيّد بروح القدس ملجأنا

عبد المجيد ولا تبقيه حيرانا

فانصره نصر عزيز لا نظير له

حتى يزيد العدا همًا وأحزانا

واحفظ علاه وأرسل يا كريم له

من الملائك حفاظا وأعوانا

وانصر به الشرع وارفع يارؤوف به

عن دينك الحق لاتعدمه برهانا

واجمع الهي قلوب المسلمين على

وداده أعله أعظم له شأنا

وانصر وأيّد وثبّت جيشًا نصرتـه

أنصـار دينك حقاً آل عثمانا

الباذلون بيوم الحرب أنفسـهم

للّه كـم بذلوا نفسًا وأبدانـا

جيش اذا صاح صاح الحروب لهم

طاروا الى الموت فرسانًا ورجلانا

الدافعون عن الاسلام كـلّ أذىً

بأنفس قد غلت : قدراً وأثمانا

كم غمّة كشفوا ،كم كربة رفعوا

وكم أزاحوا عن الاسلام عدوانا [12]

يتبيّن لنا من خلال هذه العيّنات التي قدمناها مدى الروابط العميقة التي كانت تشد الجزائريين الى الدولة العثمانية ، وتفنّد الأطروحات الإستعمارية المشوّهة للفترة العثمانية في الجزائر ، التي تعمّد المؤرخون الغربيون من خلالها تناول هذه الفترة وتصويرها على أساس أنّ الأتراك حكموا الجزائر حكماً إستعمارياً، وواضح أنّ هذا التناول كان يندرج في منطق عام يهدف الى إنكار الجذور التاريخية للجزائر ، والزعم بأنّ تاريخها ما هو إلاّ سلسلة احتلالات أجنبية : رومان ، وندال ، بيزنطيون ، عرب ، أتراك . وواضح أنّ هذا المنطق كان يخدم فكرة الإستعمار الفرنسي الذي كان يريد أن يستقر بالجزائر الى الأبد ما دامت المنطقة خالية من التاريخ

ومجردة من الشخصية الدولية ، كما يزعم المنظرون الإستعماريون .[13]

وتجدر الإشارة في الأخير الى أن التواصل الجزائري العثماني بقي مستمراً استمرار الدولة العثمانية من خلال مآثرها الخالدة في نفوس الجزائريين عبر الزمن ، ومن ذلك ما أنشده محمد العيد آل خليفة مبرزاً بطولات الأتراك ومحاسنهم ضمن قصيدة طويلة اخترنا منها هذه الأبيات :

استخبر التاريخ عن دولة
مرت على إجلائها الأعصر
كان لها في أرض مزغنة
ملك وسلطان بها يزخر
حدث عن الترك وعن بأسهم
فبأسهم في الحرب لا ينكر
حكومة الديوان دلت على
عدل من الترك لهم يشكر
قامت على الشورى فما دونها
وال بأمر الحكم يستأثر
قف حول بحر الروم مستفسراً
فكم وعى الأخبار مستفسراً

وقل له مستطلعاً قل له

هل تذكر الأتراك هل تذكر ؟

يابحر في عهدك حلف مضى

فهل تصون الحلف أم تغدر ؟

مزغنة حولك مأزومة

ويسرها المرجو مستعسر

لا عربها في كل حي بها

عرب ولا بربرها بربر

ضاقت بنا الدنيا على رحبها

وساءنا المنظر والمخبر [14]

ولقد تأثر الجزائريون كثيراً من تغيّر أوضاعهم وحلول الأجنبي ببلادهم ، ولم يبق لهم سوى تذكّر عزّهم ، وقوة بأسهم أيام الحكم العثماني ، فأنشد أحدهم[15] متحسراً يعرض أوصاف الجزائر وما كانت عليه قبل الاحتلال الفرنسي بهذه الأبيات التي نختم بها هذا البحث :

حسراه وين ديك المرسى

وغنايم الفهاوى وملف

قرصان داخلة للمرسى

قدّاش من يسير مكتّف

للكافـرين كانـت بخصـة

الأجنـاس قـاع فيها تحلف

منها الجنوس ولات نسـا

من جا يطل يمشـي زاعـف

❖❖❖❖

بعد كـان سناجق البهجة ووجاقها

الاجناس تخافها في البر وبحريـن

من درى على الجزائر وتحصـانها

وعلى وجاقها نزلت فيه العيـن

حسراه وين دار السلطان وناسـها

صدّوا وجاو اليها أوجوه أخرين

حسراه وين بايات مع قيـادها

يا من درى على ذوك القصباجيين

حسراه على السراية وعلى حكامها

وعلى مواضع الحكم المعزوزين

حسراه على ذوك الشواش طغيانها

حسراه وين الأتراك النصناصين

حسراه على المساجد غلق بيبانها

ضحاو اليوم يا سيدي منسييـن

حسراه وين تحفاتها وين ديارهـا

وين البيوت وغرف المخصيين

يا غافر الذنوب اغفر للي قالها

واغفر ذنوب عبد القادر مسكين[16]

الإحالات

(1) محمد العربي الزبيري : مدكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبو ضربة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1973 ، ص 29 .

(2) أنظر الرسالة كاملة في كتاب بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر وتونس وليبيا 1816 ـ 1871 للدكتور عبد الجليل التميمي ، الطبعة الثانية ، مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني ، زغوان 1985 ، ص ص : 114 ، 118

(3) 29 ربيع الأول 1249 هـ = 16 أوت 1833م

(4)الامير عبد القادر بن محي الدين الجزائري(1807 -1883) قائد المقاومة الجزائرية المسلحة ضد الإحتلا ل الفرنسي ما بين (1832 -1847) .

(5) أنظر الرسالة كاملة في نفس المر جع ، ص ص : 135 ، 139 .

(6) شوال 1257 هـ = ديسمبر 1841 م .

(7) انظر الرسالة كاملة في نفس المرجع ، ص ص : 93 ، 94 .

(8) 10 رجب 1288هـ = 25 سبتمبر 1871

(9) دارت هذه الحرب في شبه جزيرة القرم على البحر الأسود ، ما بين الدولة العثمانية وروسيا التي غزت أراضيها عام 1853 .

(10) هومحمد بن اسماعيل : ولد بالجزائر نحو 1820 وتوفي بها نحو 1870 .

(11) **M . Ben Cheneb :** la guerre de Crimee et les Algériens Par Le Cheikh Sidi Mohamed Ben Ismail D'Alger–R A – T : 51 /1907- O.P.U Alger – pp 169 - 196

(12) ممدوح حقي : ديوان الأمير عبد القادر الجزائري ـ الطبعة الثانية ـ دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ 1965 ـ ص ص 161 ـ 167 .

(13) محمد الميلي : مواقف جزائرية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الطبعة الأولى 1984 ، ص 321 .

(14) أنظر القصيدة كاملة في كتاب " محمد عثمان باشا " داي الجزائر 1766 ـ 1791م للأستاد أحمد توفيق المدني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص ص : 189 ، 190 .

(15) الشيخ عبد القادر حسب ما ورد في القصيدة .

(16) أنظر القصيدة كاملة في المجلة الإفريقية ، السنة 1930 ، العدد : 71 ، د.م.ج ، الجزائر 1985 .